عهد الامام علي

وكتاب السلطان بايزيد الثاني

ذكرنا في الجزء الاخير من السنة الماضية ان الاوربيين والاميركيين يتنافسون بالكتب النادرة حتى يشتروا النسخة منها بالوف من الجنيهات إما لانها خطت منذ مئات من السنين او لانها طبعت عند اول اختراع الطباعة او لانها كانت للملك او لامير او لاحد العظماء . ولم تكد تلك المقالة تطبع حتى وقع لنا كتاب نفيس من كتب السلطان بايزيد الثاني الذي رقي الى عرش الملك سنة ٨٨٦ هجرية الموافقة سنة ١٤٨١ مسيحية وقد خط سنة ٨٥٨ فلم يخط لهُ خاصةً لكنهُ اقتناهُ ليستفيد منهُ على ما يظهر

والكتاب عهد امير المؤمنين علي بن ابي طالب الى مالك بن الاشتر النخعي حين ولاهُ مصر . وهو آية في جمال خطهِ واتساقهِ مذهب الحواشي والنجوم اسود الحبر صقيل الورق ورقهُ حريري او كتاني مما كان يصنع باليد ويصقل بالمصاقل طول الصفحة منهُ ١٩ سنتمتراً وعرضها ١٢ ½ وطول الكتابة فيها ١٢ سنتمتراً وعرضها سبعة وهي سبعة اسطر فقط في كل صفحة بالشكل الكامل

ولا نطيل في وصف هذه الاعراض لان غرضنا البحث في جوهر الكتاب

لا يخفى ان عهد الامام علي هذا وارد في نهج البلاغة . ونهج البلاغة كلهُ مظنون في نسبتهِ الى الامام علي ويقال انهُ من اوضاع الشريف الرضي وليس هذا محل البحث في ذلك ولكن هذه النسخة المخطوطة منذ نحو خمس مئة سنة تدلُّ ان البعض من كتَّاب العربية يستحلُّون ان ينحلوا اقوالهم وآراءهم بين اقوال غيرهم وآرائهِ وينسبوها اليهِ . ومن كان كذلك لا يكبر عليهِ ان يؤلف كتاباً وينسبهُ الى غيرهِ مبالغةً في اكرامهِ او اثباتاً لغرض يقصدهُ . بل قد استحلَّ كتَّابنا ورواتنا سامحهم الله ما هو اعظم من ذلك فوضعوا الشيءَ الكثير من الاحاديث وجعلوها اركاناً تبنى عليها المعاملات كما استحلَّ الرواة قبلهم نظم الاشعار ونسبتها الى الجاهلية ليبيعوها من الخلفاء والامراء

وقد نشرنا في ما يلي بضع صفحات من هذا العهد كما هو في نسخة السلطان بايزيد التي عندنا وكما هو في نهج البلاغة المطبوع في مصر وذلك في حقلين متقابلين لاظهار ما في الثاني من الزيادات المقحمة فيهِ

ما في نهج البلاغة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما امر بهِ عبد الله عليٌّ امير المؤمنين مالك ابن الحارث الاشتر في عهدهِ اليهِ حين ولاّهُ مصرَ جباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح اهلها وعمارة بلادها

امرهُ بتقوى الله وايثار طاعتهِ واتباع ما أمر بهِ في كتابهِ من فرائضهِ وسننهِ التي لا يسعد احدٌ الاّ باتباعها ولا يشقى الاّ مع جحودها واضاعتها وان ينصرَ الله سبحانهُ بقلبهِ ويدهِ ولسانهِ فانهُ جل اسمهُ قد تكفّل بنصر من نصرهُ واعزاز من اعزّهُ

وامرهُ ان يكسرَ نفسهُ من الشهوات ويزعها عند الجمحات فانّ النفسَ أمارةٌ بالسوء الاّ ما رحمَ الله

ثم اعلم يا مالكُ أني قد وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دولٌ قبلك من عدلٍ وجورٍ وأنّ الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنتَ تنظرُ فيهِ من امور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنتَ تقولُ فيهم وانما يستدلُّ على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عبادهِ فليكن أحبُّ الذخائر اليكَ ذخيرةَ العمل الصالح . فاملك هواكَ وشحَّ بنفسك عمّا لا يحلُّ لك فان الشحَّ بالنفس الانصافُ منها فيما أحببتَ او كرهت . واشعرْ قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونَنَّ عليهم سبُعاً ضارياً تغتنمُ أكلهم

ما في نسخة السلطان بايزيد

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما امر بهِ عبدالله علي امير المؤمنين مالك ابن الاشتر حين ولاهُ مصر جباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح اهلها وعمارة بلادها

امرهُ بتقوى الله وايثار طاعتهِ وان ينصر الله بيدهِ وقلبهِ ولسانهِ . فاملك هواك في ما تحب وتكره واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم والعفو عن هفواتهم

فانهم صنفان إما اخٌ لك في الدين او نظيرٌ لك في الخلق يفرُط منهم الزَّلل وتعرِض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطإ · فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبُّ ان يعطيك الله من عفوه وصفحه فانك فوقهم ووالي الامر عليك فوقك والله فوق من ولاَّك وقد استكفاك امرهم وابتلاك بهم

ولا تنصبنَّ لحرب الله فانهُ لا يدَي لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ورحمته

ولا تندمنَّ على عفو ولا تبجحنَّ بعقوبة ولا تسرعنَّ الى بادرة وجدت منها مندوحةً ولا تقولنَّ انى مؤمَّرٌ آمرٌ فأُطاعُ فانَّ ذلك إدغالٌ في القلب ومنهكةٌ للدين وتقرُّبٌ من الغير · واذا أحدث لك ما أنت فيهِ من سلطانك أبهةً او مخيلةً فانظر الى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدرُ عليهِ من نفسك فإنَّ ذلك يطأمنُ اليك من طامحك ويكُفُّ عنك من غربك ويفيءُ اليكَ بما عزب عنكَ من عقلك

اياكَ ومُساماةَ الله في عظمته والتشبُّهَ بهِ في جبروته فانَّ الله يُذِلُّ كل جبَّارٍ ويهين كلَّ مختالٍ

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة اهلكَ ومن لكَ فيهِ هوى من رعيَّتك فانك الاَّ تفعل تظلم ومن ظلم عباد الله كان الله خصمهُ دون عباده ومن خاصمهُ الله ادحض حجتهُ وكان لله حربًا حتى كما تحب ان يُفعَل بك · فانك فوقهم ووالي الامر عليك فوقك والله فوق مَن ولاَّك

لا تندمنَّ على عفو ولا تبجحنَّ بعقوبة ولا تسرعنَّ الى بادرة وجدت عنها مندوحة فاذا احدث لك ما كنت فيهِ من سلطانك ابهة فانظر الى عظم ملك الله تعالى فوقك وقدرته عليك فان ذلك يطأمن عن طامحك ويكفُّ من غربك ويفيءُ اليك بما غرب عن عقلك

انصف الله وانصف الناس من نفسك وخاصة اهلك ومَن لك فيهِ هوًى من رعيتك فانك إن لا تفعل تظلم ومَن ظلم عباد الله كان الله خصمهُ ومن كان الله خصمهُ

يتزعّ ويتوبَ . وليس شيءٌ ادعى الى تغيير نعمةِ الله وتعجيل نقمتهِ من اقامةٍ على ظلمٍ فانّ الله سميعٌ دعوةَ المضطهَدين وهو للظالمين بالمرصاد

وليكن أحبُّ الامور اليك أوسطها في الحقِّ وأعمّها في العدل واجمعها لرضى الرعية فإن سخط العامة يُجحفُ برضى الخاصة وانّ سخط الخاصة يغتفرُ مع رضى العامة . وليس أحدٌ من الرعية أثقلَ على الوالي مؤونةً في الرخاء وأقلَّ معونةً لهُ في البلاء وأكرهَ للانصاف واسألَ بالالحافِ واقلَّ شكراً عند الاعطاء وابطأَ عذراً عند المنع واضعف صبراً عند ملمّات الدهر من اهل الخاصّة وانما عمود الدين وجماع المسلمين والعدّة للاعداء العامّة من الامة . فليكن صغوك اليهم وميلك معهم

وليكن أبعد رعيتك منك وأشناهم عندكَ أطلبهم لمعائب الناس فانّ في الناس عيوباً الوالي أحقُّ من سترها فلا تكشفنَّ عما غاب عنك منها فإنما عليك تطهيرُ ما ظهر لك والله يحكمُ على ما غاب عنك . فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحبُّ ستره من رعيتك

اطلق عن الناس عقدة كل حقد واقطع عنك سبب كل وتر وتغاب عن كلِّ ما لا يصحُّ لك ولا تعجلنَّ الى تصديق ساعٍ فانَّ الساعي غاشٌّ وان تشبَّهَ بالناصحين

ولا تدخلنَّ في مشورتك بخيلاً يعدلُ

ادخص حجتهُ وليس شيءٌ ادعى الى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من اقامة على ظلم

وليكن احب الامور اليك اوسطها في الحق واعمها في العدل واجمعها لرضى الرعية فان سخط العامة يجحف برضى الخاصّة وان سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة

وليس احد من الرعية اثقل على الوالي مؤونةً في الرخاء واقل معونة في البلاء واكره للانصاف واسأل بالالحاف واقل شكراً عند الاعطاء وابطأ عذراً عند المنع واضعف صبراً عند ملمات الدهر من اهل الخاصّة وانما عمود الدين وجماع المسلمين والعدة للاعداء العامّة من الامة . فليكن صغوك اليهم وميلك معهم

وليكن ابعد رعيتك منك واشناهم عندك اطلبهم لمعايب الناس فان في الناس عيوباً الوالي احق بسترها فلا تكشفنَّ عمّا غاب عنك منها فانما عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ما غاب عنك

اطلق الناس من عقدة كل حقد واقطع عنهم سبب كل وتر وتغاب عن كل ما لا يصحُّ

الساعي غاشٌّ وان تشبَّه بالناصحين

ولا تدخلنَّ في مشورتك بخيلاً يعدل

بك عن الفضل ويعدك الفقرَ ولا جبانًا يضعفك عن الامور ولا حريصًا يزين لك الشرهَ بالجور فانَّ البخل والجبن والحرص غرائزُ شتى يجمعها سوء الظن بالله

ان شرَّ وزرائك من كان للاشرار قبلك وزيراً ومن شركهم في الآثام فلا يكونَنَّ لك بطانةً فانهم أعوان الائمة واخوان الظلمة وانت واجدٌ منهم خير الخلف ممن لهُ مثلُ آرائهم ونفاذهم وليس عليهِ مثلُ آصارهم واوزارهم ممن لم يعاون ظالمًا على ظلمهِ ولا آثمًا على اثمهِ . أولئك أخفُّ عليك مؤونةً واحسنُ لك معونةً وأحنى عليك عطفًا واقلُّ لغيرك الفًا فاتخذ اولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك . ثمَّ ليكن آثرهم عندك أقولهم بمرِّ الحق لك واقلهم مساعدةً فيما يكونُ منك مما كرهَ الله لاوليائهِ واقعًا من هواك حيث وقعَ

والصق باهل الورع والصدق ثمَّ رضهم على ان لا يطرُوك ولا يبجحوك باطلٍ لم تفعلهُ فان كثرة الاطراء تحدث الزهو وتدني من العزَّة

بك عن الفضل ولا جبانًا يضعفك عن الامور ولا حريصًا يزين لك الشره بالجور فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله

شر وزرائك من كان قبلك للاشرار وزيراً ومن شركهم في الاثام فلا يكونن لك بطانة فانهم اعوان الائمة واخوان الظلمة وانت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم واوزارهم ممن لم يعاون ظالمًا على ظلمه ولا آثمًا على اثمه اولئك اخف عليك مؤونة واحسن لك معونة واحنى عليك عطفًا واقل لغيرك الفًا فاتخذ اولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك ثم ليكن آثرهم عندك اقولهم بمر الحق واقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لاوليائه واقعًا ذلك من هواك حيث وقع والصق باهل الورع والصدق ورضهم على ان لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله فان كثرة الاطراء تحدث الزهو وتدني من العزَّة

ترى من ذلك ان الذين تطاولوا على صورة هذا العهد التي كانت متعارفة منذ خمس مئة سنة وزادوا فيها هذه الزيادات الكثيرة زادوها غير متعمدين ضررًا . ولعلنا لو وقع لنا نسخة خطت قبلها بخمس مئة سنة لرأينا في نسختنا من الزيادات الشيء الكثير حتى نصل الى النسخة الاولى التي نسبت الى الامام علي فلا نجدها ربع ما هي الآن . وسواء كتب هذا العهد الامام علي نفسهُ او كتبهُ آخر ونسبهُ اليهِ فيبعد عن التصديق ان يكتبهُ مطولاً مسهباً على الصورة التي تراهُ فيها الآن واهل ذلك العصر كان يعوزهم القرطاس حتى انهم كانوا يكتبون على الجلود والعظام . وما وجد مكتوبًا من عهدهم تراهُ غاية في الايجاز . والعهد في صورتهِ الحاضرة

لا يكتبهُ الاَّ رجل متأنق حرفتهُ صوغ الكلام لا امير مشغول بالحرب والجهاد كما كان الامام علي وقس عليهِ كل الخطب المنسوبة اليهِ والاشعار التي قيل انهُ نظمها

ولنأتِ الآن الى امر آخر لا بدَّ من ان يخطر على بال كل من يرى النسخة التي بين ايدينا وهو اقتناء السلطان بايزيد لها وما يمكن ان يكون قد ترتَّب على ذلك . فالظاهر ان السلطان بايزيد كان يعرف العربية ومعلوم انهُ كانت بينهُ وبين سلطان مصر حروب كثيرة وجهَّز مرةً اسطولاً كبيراً قصد فتح مصر بعد ان قهرتهُ الجنود المصرية في حلب. افلا يحتمل ان يكون قد رغب في الاستيلاء على الديار المصرية وتولية والٍ عليها كما ولَّى الامام علي مالك بن الاشتر من مطالعتهِ هذا العهد

كان السلطان بايزيد مسالماً قليل الرغبة في فتح البلدان فلماذا حاول فتح مصر . ذكر ابن اياس لذلك سبباً تافهاً قال والذي استفاض بين الناس ان سبب الفتنة بين السلطان (اي سلطان مصر) وبين ابن عثمان ان بعض ملوك الهند ارسل الى ابن عثمان هدية حافلة على يد بعض تجار الهند فلما وصل الى جدة احتاط عليها نائب جدة واحضرها صحبتهُ الى السلطان وكان من جملة تلك الهدية خنجر قبضتهُ مرصعة بفصوص مثمنة فطمع السلطان في تلك الهدية واخذ الخنجر فلما بلغ ابن عثمان ذلك حنق . . . ولم يكف عن تدويخ اطراف الممالك المصرية . وبعث مئتين سفينة حربية مشحونة بالسلاح لمقاتلة الجنود المصرية فعصفت بها الرياح واغرقتها . هذه خلاصة ما ذكرهُ ابن اياس ولكن السبب الذي ذكرهُ للحرب تافه لا يعتد بهِ

وان صحَّ ان النسخة التي امامنا الآن نبهت السلطان بايزيد الى امتلاك مصر وجعلها من ولاياتهِ ليقيم والياً عليها يوصيهِ بما اوصى بهِ الامام علي مالك بن الاشتر فيكون لهذه النسخة شأن كبير في تاريخ هذا القطر

وسواء صحَّ هذا الفرض اولم يصح وسواء كان العهد للامام علي او كان لغيرهِ ونسب اليهِ وسواء وضع اولاً مختصراً ثم حُشي حتى بلغ ما بلغهُ في نهج البلاغة او وضع مسهباً من اصلهِ — فالنصائح التي فيهِ من ابلغ واحكم ما كتبهُ الحكماء والفلاسفة في كل عصر وما احراها ان تكون مرشداً لكل من ولي امر الناس